

في خطى التأويل – من التفسير الديني الى رحابة القراءة-

Towards interpretation from religious exegesis to free reading

أ/سعيدة خنصالي

جامعة محمد لمين دباغين – سطيف

تاريخ النشر: 2019/05/15	تاريخ القبول: 2019/01/28	تاريخ الإرسال: 2018/12/16
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

إن هذه الدراسة تقود الى محاولة رصد تطور التأويل ، واستعراض أهم اللحظات الفكرية التي بلورت مرجعيته الفلسفية وأصالتها، وبالتالي يكون الطرح الكرونولوجي للمضامين والمفاهيم البنائية التي تضمنتها مسيرته ضرورية في هذه الحال ، اذ لا تنفصل الممارسة التأويلية عن الممارسة الدينية وهو ما شكل حلقة الوصل بينه وبين التفسير منذ أقدم العصور . فإذا ما استذكرنا تاريخ التأويل بمطافاته النقدية سنجد حقبا عديدة كرسست فعاليتها لكاتب النص بحجج دينية وأخرى سلطوية أخذت مداها الأسطوري البعيد ، لكن سرعان ما اتجه زخم المعاني مقابلة وتنافرا نحو طاقة الفهم رسدا لإمكانات التكثيف اللغوي ، هذا ما جعل التأويل ينفلت من قبضة القوى المقدسة الى فضاء القارئ الذي أصبح بدوره قادرا على إنتاج نصوصه ومعانيها بمفرده ، ذلك لأن فضاء القراءة الواسع هو الذي سمح له بذلك.

الكلمات المفتاحية: التأويل ، التفسير ، الهرمينوطيقا ، المعنى ، الفهم ، القراءة.

Abstract:

This leads to the attempt of observing the development of interpretation and the exhibition of the most important moments which has cleared up philosophical reference and its originallity, and so the thesis of It contents and its constructive concepts which belonged to its career become really very important. So the interpretation practices and the religious practices can not be apart and this has formed the link between explanation and interpretation since ages. if we try to recall the history of interpretation with its criticism we will find many periods that devoted its efficiency to the writer of the text with religious and autoritarism arguments which took a long legendary run. But

soon the momentum of meaning is met with opposite and contradictory towards the power of understanding monitoring the possibilities of linguistic intensification this made the interpretation escape from the grid of the holy powers to the reader's space which in turn has been able to produce its texts and meanings on its own since the the large reading space allowed it.

*** **

تمهيد

ان التحديدات والتصنيفات تستعير سبلها من طبيعة موضوعاتها ، فكذلك هو الفهم باعتباره جوهر الممارسة التأويلية ، فهو يتشكل بموجب الحقل الذي نما فيه ، وأسس الأسس ، وعين المنطلقات المفهومية والأدائية . ولأن الحقول تختلف وتتمايز فيما بينها ، فإن التأويل يتخذ طابعا اختلافيا منذ مراحل النشأة الأولى . ثم أنه مع تداخل التيارات الفكرية والأيدولوجية ، لم يعد من السهل الإلمام بكل ما يشكل تعريفا موحدا له . فالتأويل لا يعد نظرية متعالية بقدر ما هو تساؤل عن الوجود من حولنا ، تساؤل تفرضه حالة حضورنا المهم في العالم ، لذلك تحيل ممارسته الى مختلف الاتجاهات التي لا سبيل لحصرها كالفقه ، الفلسفة ، وفلسفة اللغة بمختلف تياراتها ، وكذا الأدب والفن ثم السيميائية وغيرها من حقول المعرفة .

والحق أن كل نص يبدو فضاء رحبا للممارسة الهرمنوطيقية ، فالخطاب ليس الا جملة من الأفكار التي توجه الى قارئ وهو ما يقصي نهائية الخطاب وهو ما يؤدي الى زخم المعنى لتنشأ علاقة متلاحمة بين اللغة والتأويل تضرب بجذورها الى النصوص المقدسة أين ألحت الحاجة المعرفية الى استحضار المعاني المضمرة في الخطاب الإلهي ، كما فتحت هذه المهمة أبواب الاجتهاد والتجديد في النصوص القرآنية مما يدفع الى فك رموز اللغة التي يشتغل بها نص التفسير ويعمل على نزع الحماية من على المعنى المأخوذ كمعادل لمعنى النص الديني ، لذلك شكل التأويل عنصرا أساسيا في انتاج الرسائل العقائدية والدفاع عنها ، وهو الحال في علم الكلام لدى المسلمين . أما في الشق الغربي فقد اتسعت دائرة التأويل لتتعلق مع الأساطير اليونانية وتحمل أكثر من معنى ولا يتم ذلك الا بتوسط الرموز

وهو الترميز الذي الذي ينقل الدلالة النصية من دلالة البرهان الى دلالة الكلام ، وهي ذاتها الوساطة التي تنشطر بين الفهم والشرح والتفسي والتأويل عبر نصوص متجددة .

إذ يُعدُّ التأويل من أقدم مناهج الفكر ، وأغزرها معرفيا ، فحيويته وقفت على أن أبعاده غير نهائية مما جعلته يستنطق نصوصه خارج الوصاية الدينية عندما واجه النص قراءه ونتيجة لذلك أصبح القارئ يقرأ نصه بنفسه قراءات مختلفة في الوقت نفسه ، أو في أوقات مختلفة ، بعيدا عن كونه واعيا للاختلافات النظرية المتعالية التي تمثلها. انهما القراءة برحابتها وأفقها بناءا وتديلا وابداعا أيضا.

إلا أن البحث في مصطلح التأويل وآلياته وطريقة اشتغاله عبر مراحل تطوره، وكذا الأخذ بأهم المفاهيم التي تحيط به ، يدعو إلى الأخذ بعين الاعتبار تلك الفروق الاصطلاحية التي تكمن بين الدالتين العربية والأخرى اللاتينية من جهة ، وكذا استحضار ظاهرتي تجليه وانبثاقه. وهنا يكون السؤال عن أهم المفاهيم العالقة بمصطلح التأويل ؟ وعن الدور الذي لعبته هذه المفاهيم في استشكال مباحثه وتطور صوره ؟ فكيف انتقل التأويل من ضيق نص بعينه الى فسحة القراءة ورحابتها ؟

أولا- في الدلالة اللغوية العربية : بين التأويل والتفسير

إن الكشف عن دلالة التأويل في اللغة العربية يحيل إلى حقلها المعجمي ، فالتأويل من " أول الكلام وتأوله: دبّره وقدره وأوله وتأوله : فسّره . وقوله عز وجل : "ولما يأتيهم تأويله"(1) ، أي لم يكن معهم علم تأويله" ، إذ من الواضح أن التأويل يتقدم هنا باعتباره تفسيرا وشرحا، بما يعني أن التأويل والتفسير يجتمعان في دلالة واحدة ، وقد نلتمس في معنى التدبير والتقدير ما يقتضي الموازنة العقلية التقديرية بين اللفظ ومعناه. و تعبر الدلالة اللغوية للتأويل في اللغة العربية عن أصالة في حفظ التناسب بين اللفظ وما يقتضيه من تأويل ، وهي ميزة تنشد الاعتدال ، إذا ما صح تأويل هذا التأويل.

أما القرآن الكريم فقد تناول التأويل في مواضع كثيرة ،فإلى جانب ارتباط التأويل في القرآن بالكتاب والأفعال ، ارتبط أيضا بالرؤى والأحلام . إذ ورد المصطلح في سورة يوسف ، في أكثر من آية ، يلتمس القارئ فيها التأويل بما هو تفسير للرؤيا والحلم : " رب قد آتيتني

من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث " والمعنى نفسه يتجلى في الآية : " وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمهما على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم"(2) وستحقق التأويل صدقا عندما أتى سيدنا يوسف على تفسير الرؤيا: "و دخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما إنني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إنني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين قال لا يأتيكما طعاما ترزقانه إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكم مما علمني ربي .إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون"(3) وورد أيضا بما هو تفسير وتحليل وإظهار لما كان مهما وعسيرا على الفهم : "سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا"(4)

واللافت للانتباه عند النظر في معنى التأويل في هذه الآيات، أن التأويل يتقاطع مع التفسير بمعنى الشرح ، لدرجة تطابقهما في الدلالة اللغوية العربية : " فسر، الفسر: البيان . فسر الشيء، يُفسره بالكسر، ويفسره ، بالضم ، فسرا وفسره ، أبانه[...].التفسير والتأويل والمعنى واحد. وقوله عز وجل : " وأحسن تفسيرا" الفسر: كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المُشكّل، والتأويل: رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر"(5) وهنا نلتبس تطابقا وظيفيا بين التأويل والتفسير، ما دام المراد واحد ، وهو كشف المعنى واستنباطه من ظاهر الآيات القرآنية، فالقرآن لا يُفهم إلا من خلال تفسيره وأداة هذا التفسير هو التأويل في الاستنباط والتحليل والتركيب .

وقد ورد معنى التفسير في كتاب الله عز وجل في الآية : " ولا يأتوك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا"(6) . وعلى الرغم من هذا التطابق بين التأويل والتفسير داخل الحقل المعجمي للغة العربية ، إلا أن الدلالة الأصولية داخل العلوم الشرعية تميز بينهما، حيث يكون " التأويل في الشرع صرف اللفظ عن معناه الظاهر، إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا للكتاب والسنة مثل قوله تعالى يخرج الحي من الميت . إن أراد به إخراج الطير من البيضة كان تفسيرا، وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر، أو العالم من الجاهل كان تأويلا"(7) وسيمكن علماء أصول الفقه من وضع الضوابط المنهجية لممارسة

التأويل داخل حقل هذا العلم ، وذلك أن استنباط الأحكام الشرعية من النص سواء كان كتاب الله أو سنة رسوله يقتضي التحول نحو آليات مضبوطة يقول فيها الأمدي : " فلتوقف معرفة دلالات الأدلة اللفظية من الكتاب والسنة [...] على معرفة موضوعاتها لغة من جهة الحقيقة والمجاز ، والعموم ، والخصوص ، والإطلاق ، والتقييد ، والحذف والإضمام..." (8) وهو ما يضبط الدلالة إذا ما اقتضى الأمر التأويل في علم أصول الفقه.

والحال أن الفرق بينهما يكمن في المجال الخاص لكل منهما ، ذلك أن : " أكثر استعمال التفسير في الألفاظ ومفرداتها ، وأكثر استعمال التأويل في المعاني للتوفيق بين ظاهر النص وباطنه " (9) من هنا يكون التأويل أوسع من التفسير من الناحية العقلية ، والعلاقة بينهما تكون كالعلاقة بين اللغة والفكر ، لكن هذا لا يعني انفصالهما البتة ، إذ لا يصل المؤول إلى الكشف عن المعاني إلا إذا فك الألفاظ وفسرها فالعلاقة بينهما تكون علاقة تضاييف.

ولأن التأويل والاشتغال به قد استحوز على العقل العربي الإسلامي لمدة معتبرة بالنظر إلى اختلاف هذا العقل في فهم النص ، وقد أصابه التشقق العقدي بعد فتنة الإمامة بين أهل السنة والجماعة والشيعة وغيرهم من الفرق الأخرى ، ذلك هو الأمر الذي جعل التاريخ الإسلامي يشهد نزاعات عقلية داخل الفرق الكلامية لأن إباحة التأويل لظاهر الآيات القرآنية بتفسيرها ، يجعل منها منفتحة على آفاق متعددة ، حيث وصل الاحتدام إلى حد تحريم التأويل وتكفير المشتغلين به كون المؤولون يبتعدون عن ظاهر الآيات القرآنية متقصين باطنها ، فينظر إليهم على أنهم يخوضون في مسائل تفوقهم كمخلوقات ، كان عليهم أن يتمسكوا بظاهرها فحسب ، مصداقا لقوله تعالى : " هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب " (10) . لذلك يتجه التأويل نحو الآيات المتشابهات في القرآن الكريم .

من هنا كان التأويل يسير جنبا إلى جنب مع المسائل الإيمانية ، خاصة إذا تعلق الأمر بنشوء علم الكلام باعتباره منهجا دفاعيا وحواريا ، لهذا جاز القول أن علم الكلام هو علم التأويل بامتياز ثقافة وتاريخا ، إذ أن علم الكلام يستمد حيويته من التأويل (11) .

من هنا يبدو أن التأويل داخل الدلالة العربية شديد الصلة بالفضاء الديني ، فهو لا ينفصل عن كتاب الله وسنة رسوله ، بما يجعله يسير جنبا إلى جنب مع التفسير، أي التفسير والكشف عما تضمهره الآيات القرآنية ، بل إن الاكتفاء بظاهرها من جهة أخرى ينزع عن التأويل مهمته المنتظرة.

ثانيا- في الدلالة الغربية : بين التأويل والهرمينوطيقا والفهم

ولأن الفلسفة اليونانية هي الحاضنة لكل ظمأ معرفي، تاريخها هو تاريخ لحظات عدم الإشباع ، فقد كان من الضروري الوقوف على التأويل في فضاء اللوغوس اليوناني قبالا، ومما لا شك فيه أنه يمثل إحدى التقاطعات التي تميز خطابا عن آخر. ولمعرفة الأبعاد التي استشكلت التأويل في منظومته الفلسفية نقف عند أرسطو ، إذ ورد التأويل في كتابه الثاني من المنطق: "العبارة"، تحت اسم PeriHermeneias (أي في التأويل) حيث يرادف "الإعلان" مصطلح "التأويل" ولا ينفصل التأويل لديه عن العمليات العقلية المنطقية ، أو لنقل إنه جزء من أجزاء منطقهِ ، فالتأويل بهذه الصيغة لا يعبر عن شيء أكثر من الحكم على موضوع ما بأنه حق أو باطل، لكن هذا لا يعني البتة أن الإعلان هو المنطق، بل أن المنطق ينطلق لديه من مقارنة العبارات المعلنة، في حين يعمل الإعلان أو التأويل على صياغة العبارات ذاتها ، وعليه يكون التأويل في عُرف أرسطو منطلقا أوليا في التمييز بين عبارة وأخرى (12) . ذلك أن العبارة لدى أرسطو لها ضربين : إما أن تدل على شيء واحد، وإما أن تدل على أشياء تتألف فيما بينها عن طريق الربط (13). وبهذا يكون التأويل في الثقافة اليونانية وتحديدا في الفلسفة الأرسطية ، مدخلا نظريا لا يحيل إلى أكثر من الشكل المنطقي.

وإذا كان العقل الديني عقلا يتخذ من الإيمان والخلاص والسعادة والخوف أدوات ومادة تمثل المطلق في إحدى اللحظات الزمانية ، تمتاز فيها الروح بالعقل ، سيكون الله

هو محور التجربة التأويلية لعهود طويلة ، إذ بالتأويل تكون الذات المؤمنة مدعوة لتجاوز ذاتها ، أو أن تُقَوِّمَ ذاتها ، لأن الحقيقة كما تقررها العقائد السماوية منجزة ، تحصر وظيفة المؤمن في اكتشافها وإنارتها . لهذا تزايد حضور التأويل في تلك المناسبات فكان اللقاء يتعلق بتفسير النصوص المقدسة ، ويعني هذا الأخير في موطنه : " الشرح اللغوي (الفيلولوجي) والمذهبي لنص ما ، وبوجه خاص النص الذي يعتبر كحجة : التوراة نصوص القانون..." (14) . وبهذا التعيين يبتعد التأويل عن الذهنية الأرسطية التي تختزله في فعل التعقل ، ليصبح منهجا في الاعتقاد ، فكان حلول التأويل في التراث اليهودي أمرا اقتضته مشكلة التوفيق بين التصورات التوراتية والفلسفية، ليغدو تأويل النص الديني سبيلا لفهم النصوص السماوية أي قراءة النصوص قراءة فلسفية دينية . وهو ما تؤيدها لأليغوريا أو التأويل المجازي " وهي رمزية واقعية ، تشير إلى تتابع كلي داخل رواية ما، لوحة...الخ، ومثلما هو الحال في كل العناصر المعبر عنها رمزيا والمتصلة فيما بينها منهجيا ضمن عناصر الترميز" (15).

ويعد فيلون الاسكندري واحدا من الذين عُرفوا بهذا التأويل ، باعتباره " فيلسوفا إغريقيا من أصول يهودية ، كانت فلسفته متشعبة بفلسفة أفلاطون وأيضا بالتوراة، وتستلهم الأفلاطونية المحدثة ومذهب آباء الكنيسة " (16) . إذ نلتبس غاية فيلون القصوى في تحقيق تجانس بين أفكاره الفلسفية ومعتقداته التوراتية في ظل التأويل، وهذا ما يجعل من فعل التأويل أمرا ملحا لكنه مؤهل لأصحابه فقط، من الذين يحترفون طريقة التأويل الرمزي أو الأليغوريا. وأن دعواه هذه تروم تحليل المعنى القابع خلف الرموز. فالأليغوريا هي عبارة عن منهج بلاغي ووضع هيرمنوطيقي -في الوقت نفسه - يستند إلى الخطابات والتأويل (17) .

هذا ما يشير إلى ثمرة العلاقة بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي الذي أرساه العقل التأويلي المشبع بالديانة التوراتية، فحتى وإن فتح المجاز الباب للتأويل اللاهثي والمتعدد، فإن هذا لم ينفلت من السلطة الدينية التي كان يتحكم رجالها في حدودها (18) ، ذلك أن

النص الديني محروس من طرف العقيدة ،مما يجعل التأويل خادما لها ، و من ثم حتى وإن أراد تجاوز الحدود فهو لا يكون ضد العقيدة التي يدافع عنها كل نص ديني .

بهذا كانت غاية التأويل عند فيلون الاسكندري - وقد تشرب باللوغوس اليوناني زمان مدرسة الإسكندرية - هي إجراء مصالحة بين الدين والفلسفة ،مما يجعل تلك الفترة مهمة جدا في تاريخ التأويل، نظرا لتطلع التأويل نحو المسائل الفلسفية في صورتها الحوارية ، وذلك عن طريق التمثيل : تمثّل يستقي مصداقيته من واقع النص التوراتي عن طريق المجاز ، فالرمز وسيط ذهني بين المستوى الحرفي والمستوى الحقيقي.

ونلمس الغاية ذاتها في التراث المسيحي بمعية القديس أغسطين الذي كان هو الآخر حريصا على إحداث التوافق بين الفلسفة والدين المسيحي بسبل تأويلية أيضا ، إذ كان يعمل هو الآخر على تقديم المسائل الدينية في إطار عقلي فلسفي، متأثرا بالفلسفة اليونانية الأفلاطونية، والأفلوطينية ، وقد فصل بين العقل والنقل ، بما يعني أن الإيمان أولا ثم يأتي العقل ، وفق المقولة المسيحية الأثير آمن لكي تعقل ، إذ تكمن مهمة الفلسفة في الاعتقاد قبل التعقل(19). ومن أهم تطورات الفلسفة الأوغسطينية في الشأن التأويلي ، ما يراه أوغسطين في أن تأويل الرسالة التوراتية ضروري للتكوين الجمالي للمؤمن : بما أنه يوفر له المعالم الضرورية لتوجهه الثقافي، وهذا ما قاده إلى الاهتمام بالعلامة التي تحمل التعلم ، فالتعلم محمول في أشياء والعلامة هي الأداة الحاملة له(20).

هي فواتح إذن لمقولة العلامة ، ومن ثم تكوين فكرة تتسم بالمعقولية يمكن للباحث أن يدرك من خلالها تلك العلاقة الكامنة بين التأويل والفلسفة بوسمها قديمة قدم الحضارة الإنسانية ، فالمنهج واحد والغاية واحدة هي كشف الحقيقة ، وان كانت في صورتها الأولية الدينية ، وهو ما ميز التأويل في تعاليمه الوسيطية ، إذ كان يحظى بتربية روحانية : الله وجود يعلو النفس ، ويساعدها في الوقت ذاته على أن ترتفع إليه في لحظة تتجاوز الأنا ذاتها(21).

ومن هنا بات واضحا أن دلالة الهرمونوطيقا تتقاطع مع التفسير اللاهوتي بكل أشكاله ، إلا أن طريق التفسير الذي تتقدم به ، يجعل من مدلولها أكثر صرامة من ذي قبل نظرا

لاحتكامها لتلك القواعد ولأجل هذا التقاطع وجبت المقارنة والفصل بين المدلولين على نحو أكثر دقة : " تتميز الهرمنوطيقا Hermeneutics عن التفسير Exegesis بأنها منهج هذا التفسير وأصوله وأحكامه فإذا كان التفسير وقفا على الشرح أو التعليق الفعلي ، فإن الهرمنوطيقا هي قواعد هذا التفسير أو منهاجه أو النظرية التي تحكمه " (22) وعلى هذا النحو فإن العلاقة بينهما هي كعلاقة المنطق الأرسطي بالاستدلال ، فهو الآلة التي تعصم الذهن من الوقوع في الزلل عن طريق قواعده الصارمة ، فكذلك هي الهرمنوطيقا فقد بدأت في الدراسات اللاهوتية بجملة من المعايير التي يتبعها المفسر لفهم الخطاب الديني في الكتاب المقدس ، بما فيه التفسير التوراتي ، وهذا ما جعل البعض يطلق عليها نظرية التفسير أي نظرية تأويل العلامات الدينية ، فالمفسر ينسق رمزيا ودلاليا ليس وفق هواه وأغراضه ، وإنما وفق قواعد وآليات هي بمثابة مرجعية دلالية له ' عبر منهج أو نظرية محكمة القواعد . مما يؤدي إلى توطيد الوصال بين التأويل في حلته الهرمنوطيقية و الفضاء اللاهوتي ، وهو ما يبرر أيضا الارتباط الوظيفي والمنهجي بين الهرمنوطيقا و التفاصيل اللاهوتية وترجع أولى علامات هذا الاتحاد إلى التسمية في حد ذاتها ، إذ ترتبط الهرمنوطيقا في اشتقاقها اللغوي بالشخصية الإغريقية هرمس: إذ تروي الأسطورة اليونانية أن هرمس كان رسولا للآلهة ، وكان عمله أن ينقل إلى الناس في الأرض رسائل وأسرار آلهة أوليمبوس ، ومهمة هذا الرسول هي جعل ما يبدو عقليا شيئا ذي معنى وواضحا للأذن البشرية فاللامرئي يمثل في المخيلة بصور متباينة تدعو إلى الحيرة والإبهام ، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالآلهة المتعالية على مخيلة البشر .

تلك هي الأسطورة الإغريقية التي كانت ترمز إلى مهمة هذا الرسول في كسر جدار الرمزية بين العالم العلوي المبهم الخاص بالآلهة والعالم السفلي الحائر الخاص بالبشر ، إن هرمس يلج عالم الآلهة لينقل للبشر أقذارهم ويحاول أن يقربهم من معرفة آلهتهم الغامضة . وبهذا يمكن أن نتصور أن إطلائته ليست بالمبهجة دوما إنها إطلالة مفزعة حتى وإن حملت معها قدرا سارا ، لأنها ببساطة تأتي بعد طول انتظار ودونما توقع سابق لما تحمله ، حيث يذكر أن " بان Pan ابن هرمس له نصف علوي لطيف ورباني ، وآخر سفلي ماعزي goat-Like [...] قسمين: حقيقي وزائف ، يقترن الحقيقي فيها بالجزء

الرباني في حين يقتزن الجزء الزائف بسبل الإنسان المساوية " (23) وقد تثير هذه المفارقة تساؤلا حول طبيعة العلاقة بين طبيعتي هرمس والهرمنوطيقا، وهو ما يكشف عن التطابق بينهما ، فالصلة التيمولوجية بين خصائص الهرمنوطيقا وخصائص الإله هرمس هي صواب مؤكد لا شك فيه فالهرمنوطيقا هرمسية قلبا وقالبا ، بمعنى أنها متقلبة ومهمة مفاجئة مثله ، وهو ما يجسد لفعل التأويل من حيث عدم استقرار (24) المهمة الموكلة إلى هرمس تكمن في ترجمة لغة الآلهة إلى لغة البشر، إنه ينسج عوالم غير منتظرة ، فهو يسترق الأحداث والأشخاص والأماكن من مكانها.

هي ملامح اللااستقرار واللاهائي التي زرعتها تلك الأسطورة الإغريقية آنذاك ، أولنقل تلك الفترة عموما ساهمت ولازالت تساهم إلى الحاضر في تحديد مرجعيات العقل الغربي التأويلي وترسم فضاءات نشاطه ، وهو ما تبرره مظاهر التأويلات اللاهائية المعاصرة .

هكذا أخذ التأويل في التفكير الغربي القديم المشهد العقائدي واللاهوتي ، في ظل هيمنة العقلية اليونانية الميتافيزيقية المتعالية، ليرتبط بأفاق ضيقة فصلته عن آفاق موضوعية . يكتسي التفسير هذه المرة طابعا محكما تكسوه روح المسائلة الحرفية من جهة، والمسائلة العقلية من جهة أخرى ، وهو ما لمسناه في التدبر والتقدير الذي تضمنه التفسير عند العرب .

وإذا كان للتأويل غاية، فالأجد أن تكون هذه الغاية هي استجلاء معنى ما، قابع خلف كلمات النص ، لكن تقديم تعريف دقيق للمعنى ، يعتبر أمرا عسيرا نوعا ما ، وهي النتيجة التي نصل إليها للجزم بأن مصطلح المعنى من أكثر المصطلحات غموضا في استخداماته المختلفة في النظريات اللسانية دون التمكن من تقديم تعريفات محددة ونهائية (25) ، لكن هذا الغموض لا يحيل على استحالة مطلقة، يبقى أن استحضار المعنى يستوجب درجة معرفية هي الفهم، لأن العلاقة الوظيفية واردة بينهما : " فهم اللفظ حصول معناه في النفس، فان لم يحصل معناه في النفس بالقوة أو بالفعل كان كالألفاظ اللغات الأجنبية تسمعا ولا تدرك معانيها، وجملة القول أن الفهم هو حسن تصور المعنى " (26) وعليه فإذا

كان المعنى يتوسط بين الفهم والتأويل ، فإن العلاقة إذن تتعدى إلى علاقة مباشرة بين التأويل والفهم..

ومع التطورات التي لحقت بالتأويل ، اشتد التداخل بين التأويل والهرمنوطيقا في التقليد الفلسفي فالهرمنوطيقا أو التأويلية أو نظرية التأويل ، برزت من حيث هي مشروع عالمي لا يعرف الثبات ولا السكون. إذ التأويل في حلتها الهرمنوطيقية العالمية قد تجاوز كل الفروقات العالقة بينهما . هو إذن حلول التماهي بينهما عندما نلاحظ استحواذ مفهوم الهرمنوطيقا استحواذاً كلياً على مفهوم التأويل في الدراسات الغربية المعاصرة ، فهذا معجم لالاند باعتباره أحد أهم المرجعيات الفلسفية الأساسية، يفتقد لمدلول التأويل ، بينما يدرج الهرمنوطيقا في معجمه وما تتضمن من مدلول حول التأويل ذاته ، وهذا ربما ما يجيز لنا أن نستعملهما بالمعنى نفسه على نحو عام . ومن ثمرة هذا التداخل اتخاذ مقولة الفهم من حيث هي النقطة المركزية التي تلتف حولها كل المسائل التأويلية الفلسفية المعاصرة .

فالتأويل هو فن تجنب سوء الفهم ، أي الفن الذي يشترك فيه القارئ والناقد على حد سواء (27) وهكذا يعني أن سوء الفهم هو السبب المباشر الذي يدعو إلى الفهم ومن ثم إلى التأويل. وأن البعد الزمني هو الذي يغذي هذا الجدل بينهما، ويزيد من فعالية التأويل، بمعنى أن الفترة التاريخية تساهم بشكل أو بآخر في تحصيل الفهم، لتصبح العلاقة بينهما طردية لامحالة. وهو الأمر الذي قاد الهرمنوطيقا إلى مساءلة علمية ، تبحث مسألة الحقيقة ككل ، ونجم على إثر هذا التصور الأنطولوجيا لإعلان عن أولوية الحقيقة على المنهج، إذ تتقدم الهرمنوطيقا الفلسفية بوصفها وسيلة لتصحيح مسألة تعيين هوية الحقيقة (28) .

تكون الحاجة للرجوع إلى اللحظة الفلسفية الأصيلة ، في الشأن الهرمنوطيقي عند الحديث عن التماهي بين الهرمنوطيقا والفهم ، بما هو استشراف في الوقت ذاته للهرمنوطيقا الفلسفية. فمسألة الربط السردي بين التفكير واللغة لا يمكن أن تقام له قائمة إلا بإرغام الهرمنوطيقا على أن تصبح فلسفة (29) ذلك أن اللغة فضاء تعبري ، تتأتى أهميتها في الحقل الهرمنوطيقي من حيث أنها توفر رؤية جديدة للوجود حيث تنفتح

الذات على عالمها الخارجي، ومن ثم تتحد الذات المدركة مع الموضوع المدرك حيث يحدث هذا التشابك بمقتضى ما يمليه العقل فتدشأ بذلك عملية الفهم. وحتى تقترب الصورة للأذهان أكثر، تكون تلك العلاقة الجدلية بين التأويل والفهم كالتالي: "التأويل ليس واقعة ثانوية لاحقة تُكمل الفهم، بل إن الفهم بالأحرى هو تأويل دائماً، ومن هنا فإن التأويل هو الفهم بشكله الصريح [...] وهو ما ينقل مشكلة اللغة من موقعها الهامشي والثانوي إلى قلب الفلسفة" (30)

بدءاً من هذه اللحظة الجدلية، يمكن استعراض ارتقاء الهرمنوطيقا، إلى المستوى الفلسفي، وهي لحظة يحتل الفهم من ورائها موقعا محوريا في الإشكاليات الهرمنوطيقية المطروحة، باعتبار أن التأويل هو الغلاف الخارجي لعملية الفهم، وأن الغاية القصوى للتأويل هي بالضرورة فهم المعنى والقبض عليه.

وإذا كان الفهم تصور عقلي يحصل في ذهن المؤول، فإن "بداية الفهم مرهونة بوجود شيء ينادينا ويدعونا إلى الفهم إنها أولى الشروط التأويلية" (31)، وهو ما يزيد من النشاط الضمني للتأويل ويكثف من إحكامه. ولأن الحقيقة تعلو المنهج، فالحقيقة تشع لحظة الفهم، والفهم لا يستشرف إلى الأذهان إلا إذا استأنس بمرجعية قبلية، هي في الوقت ذاته شروطاً تمكن الذات من الاستحواذ على الفهم لموضوعها الذي لا تنفصل عنه. إذ أنه كلما زاد التعمق في المعنى زاد الإلحاح على وضع ما يلائمه من تصورات قبلية. إذ أن الممارسة التأويلية تمتد وتتوغل لتشمل كل الآليات التي من شأنها أن تتجه صوب كل ما هو قابل للفهم، بغض النظر عن العلاقة الجدلية بين ما هو ذاتي وموضوعي، لتتجلى معالم العلاقة بين التأويل والحقيقة من حيث هي علاقة إيضاح وكشف.

لقد ألبست هذه الرؤية المعاصرة التأويل لباسا فلسفيا، ينم عن عمق وتأصيل، فكانت الغاية واضحة، وهي تقصي الحقيقة، أو لنقل فهم الحقيقة، إن صح ذلك، ومن هنا يتموضع الفهم في التقليد الفلسفي، بما يجعل المؤول ضمن تجربة هي خزان لا ينضب من الصور والمعاني المجردة، فتكون أولى مقومات الطرح الفلسفي للتأويل على محمل الجد "على أن الفهم كله ينطوي على تأويل، إذ يمثل التأويل عملية تاريخية تعبر باستمرار

عن المعنى المحتجز في الفهم" (32) ، باعتبار أن كل خطاب هو وليد سياق تاريخي ، لا يمكن فهمه أو الكشف عنه إلا ضمن هذا السياق. فالإنسان بأية حال من الأحوال لا يتم فصل عن تجربته التاريخية بوصفها نمطا من أنماط كينونته. ذلك أن الوجود الإنساني برمته لا ينفصل عن الإطار التاريخي الذي يتموضع فيه، إذ ثمة تواصل لا انقطاع في التمثل للحظة التاريخية ، التي تكشف عن أصالة و ثراء كل لحظة فلسفية ، هي ماهية يحملها كل وعي تأويلي ، يسعى لتحقيق تلك الماهية وتأصيلها حتى تجسد عملية تشكيل العالم . وعبر هذا الحوار التأويلي بين الماضي والحاضر، يتقدم التأويل إلى عالمية الوجود ولم يتحقق له ذلك، إلا بعدما احتل مملكة الفهم الإنساني ، للانتقال هذه المرة من مستوى مجرد إلى مستوى تطبيقي لفهم الحياة ككل.

وتبعا لهذه السيرورة التأويلية يمكن الجزم أنه لا وجود لمعنى واحد ، لأن الحياة تعبر عن تدفق واستمرارية، إنها ديمومة برغسونية في تجدد مستمر لا يعرف الاستقرار عند معنى واحد ، ومن هنا ينفث الخطاب على آفاق متعددة حسب الإطار الزمني والمكاني ، لتتجسد قدرة الفهم على خلق وإنتاج معاني جديدة من خلال اللغة. بل وإلى أبعد من ذلك: " يتجلى نشاط فن التأويل في إنارة الفهم ليس كتواصل سري بين الأفراد وإنما كمشاركة في بلورة معنى مشترك " (33) ، إذ أن مقولة المشاركة تكمن في اتحاد الذات بالآخر ، ومن ثم تتوسع دائرة الفهم ليكون تآلف الذات مع ذات الآخر ضمن تمايز الذات واختلافها، إنه الانفتاح على الآخر.

يأخذ التأويل هذه المرة طابعا أيديولوجيا وليس فلسفيا فقط بل يتأنس التأويل في هذه الصورة الواقعية الواعية، لتطرح مشكلة الفهم في ظل التجربة الإنسانية ، ويستمد الخطاب الهرمونيقي منها قوته تجده . نحن إذن إزاء هرمونطيقا جديدة معاصرة. وأمام تجربة واقعية ، تجعل من التأويل ممارسة وليس نشاطا ذهنيا فحسب ، ليصبح الفهم التاريخي والإنساني بأبعاده الثقافية والاجتماعية غاية كل تأويل ، مما يفتح المجال أمام خلق حوار مع الآخر، يُفضي إلى تعدد للتأويلات، بما يجعل الجزم قائما حول

طبيعة للهرمنوطيقا في التقليد المابعد حدائي بأنها " ليست منهجا للوصول إلى الحقيقة ، إنها ظاهرة لا علاقة لها بشكل المنهج " (34)

ثالثا - التأويل و القراءة :

ولأن الفهم يعتمد إلى بناء معنى ما ، ولأن المعنى لا يتكشف إلا في حدود اللغة حيث لا نقول إلا ما نفكر فيه ، فان الفهم يدين للغة بالكثير، بما يجعلها الإشكالية الكبرى التي تلتف حولها كل المشكلات ، منها وإليها ، كون العلاقة الأساسية بين اللغة والفهم لا تنفصل عن الحقيقة التي مؤداها أن ماهية التراث توجد في وسط اللغة، لذلك يكون الموضوع المفضل للتأويل هو موضوع لغوي(35) . والمؤول يتجه صوب المقاطع المهمة كشفا عن حقيقتها و تحصيلها واستنفادها لها ، وهذا بموجب قواعد لغوية ، ثم يعمل بمقتضاها كنظام يطفح بخلق وإنتاج أكثر من معنى في الخطاب الواحد ، وهو ما يومي بتشكيل جملة من المقاربات التي تستدعي توليد المعنى الباطن من النص الظاهر، مما يستدعي إزالة كل الفروق التي كانت بالأمس تطرح تناقضات نحو غاية أكبر: "ونحن نفسر شيئا ما لشخص ما من أجل أن نجعله يفهم، ويستطيع بدوره أن يفسر ما فهمه منا لطرف ثالث هكذا يميل الفهم والتفسير إلى التداخل ويغض كل منهما الطرف عن الآخر"(36) إنها القراءة .

هكذا وصل التأويل إذن إلى فضاء القراءة (37) ، لتصبح هذه الأخيرة من أكبر المشاريع التي طرحت نفسها بجدية على مختلف المستويات الهرمنوطيقية المعاصرة . إذ تتلاقى كل النصوص المقروءة سابقا وتلاحم بوعي أو غير واعي في عملية القراءة، بما يجعل من هذا الفعل فعلا آليا ، بل إن كل قراءة تسهم في إقامة علاقة مع عدد كبير من النصوص ، مما يجعل النصوص تتقاطع وتتلاءم وتتعارض في ظل القراءة (38) ليكون على ضوء القراءة الإعلان عن عالمية للهرمنوطيقا ، قراءة لا تعرف التحيز. ومن هنا تصبح الهرمنوطيقا نظرية في القراءة لأن النص يحمل دلالات ووقائع يخفيها وراء كلماته التي ينطق بها ولا يصحح بها كلها ، ويحتاج إلى قارئ يستنفذها من خلال الفهم والتفسير والتأويل، مجتمعة معا .

ويوصف هذا التملك للقارئ بأنه تملك يثري فهمه لذاته، حين يفسر الإشارات المحيطة به ، فيتخذ التأويل لنفسه من هذا المنظور صيغة كلية تجمع كل الآليات التي تساهم في بناء القراءة ، وهي الغاية القصوى من الممارسة التأويلية التي لا ترضى بأحادية المعنى والذي يتجلى من خلال اللغة ، أي من خلال نسيج الكلمات، ليقوى ساعد الهرمنوطيقا أكثر فأكثر خارج حدود الكلمات. فالهرمنوطيقا في صورتها المتنافرة لا تتمزق على بنية المعنى المضاعف ولكن على طريقة انفتاحه ، بل إن هذا الصراع هو الذي يُبدي قوة الهرمنوطيقا وضعفها(39).

ولأن التاريخ بحمولته الثقافية هو الذي سطر آفاق الحوار التأويلي ، مثلما لمسناه سابقا ، فإن التفاعل بين مقومات هذا التاريخ هو وحده المُشكّل لفعل القراءة ومن ثم التأويل. ولا شك أن هذه الرؤية الفلسفية هي التي عمقت المسار التأويلي لينزل هذه المرة إلى الحياة بكل ثقلها الروحانية والثقافية من جديد . ومن هنا فإذا كانت الذات مدعوة إلى فهم نفسها أمام النص ذلك أن الحقيقة ذاتها تفرض نوعا من النشاط الذاتي موجه لكي يمكن من امتلاك الشيء ، فإن ذلك لا يتم في نطاق انغلاق الذات على نفسها بل في انفتاحها على العالم الذي تُعاود وصفه وبنائه (40).

وتكمن وجهة الطرح الذي يمدّ بين التأويل والقراءة من جهة ، والتأويل والعلامة من جهة أخرى من حيث أن فهم العالم يقتضي الانفتاح على هذا العالم ذاته ، إلا أن التجربة الإنسانية تتبدى لنا في شكل علامات تنتظر فهمها وتأويلها، يختلف باختلاف الذوات وتباين المنطلقات وكذا الأزمنة والأمكنة .

وانطلاقا من هذا التصور، تتقدم العلامة إلى التأويل ، من اللحظة التي نزل فيها التأويل إلى الحياة بكل حمولتها ، على أن كل زاوية من زوايا هذا الوجود الإنساني يكشف عن علامة ترمز إلى شيء ما أو تتكلم بالنيابة عن أمر ما ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تعيينها إلا عبر التأويل . إذ تقوم العلامة بمنح الأشياء وضعا حيا وهو ما يشكل الحياة. إن هذا الالتحام بين التأويل والعلامة هو ما يجيز الاعتقاد بأنه الانفتاح على نص العالم أو

عالم النص ، وأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال إغفال العلامة في الممارسة التأويلية في انفتاحها على مختلف ممكنات الحياة..

ولأن تعدد القراءة ، قد أفضى إلى تعدد في المعنى ، وهو ما يفصح عن تعدد للتأويل ، بل إن نشاط التأويل وديناميكيته لا تتجسد إلا إذا كان هناك وعي بتعدد القراءة ، فالمعنى والقراءة والتأويل كلها آليات تجتمع على التعدد والتضاعف البادي في كل تأويل (41) . وهكذا كانت تعددية المعنى وتعدد القراءة هي إحدى الوجوه التي آل إليها التأويل في الوقت الراهن وبلغة التغيير هي إحدى ملامح الحداثة وما بعدها، وبلغة الثورة هي إحدى البوادر لتحرير المعنى من سجن الأنساق. لقد بات من السهل تصديق القول " بان قمة الهرمنوطيقا النهائية قد ضاعت في الغيوم وإلى الأبد "(42).

هكذا احتفى التأويل بمفاهيم تخصه باعتبار ان المفاهيم هي التي تصنع الافكار والافكار هي التي تؤسس المذاهب والتيارات ، وهو ما تلك المراحل التي مر بها التأويل بدءا من النص المقدس الى النص ككل أولنقل بدءا من الخطاب المقدس الى الخطاب اللغوي.

الهوامش:

- 1-ابن منظور: لسان العرب، المجلد 1، دار الجيل ، بيروت ، 1988، ص131
- 2-سورة يوسف: الآية 6
- 3-سورة يوسف : الآيتين 36،37
- 4-سورة الكهف: الآية 78
- 5-ابن منظور: لسان العرب، مادة فسر، مج 1، ص1059
- 6-سورة الفرقان : الآية 33
- 7-جميل صليبا : المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1979، ص234
- 8-الأمدي : الأحكام في أصول الأحكام ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1996 ، ص11
- 9-جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، ج 1، ص314
- 10- سورة آل عمران : الآية 07
- 11- أنظر عزيز أبو شرع : الهرمينوطيقا وعلم الكلام الجديد، مجلة التفاهم ، وزارة الاوقاف، عمان ، ع31، 2011 ص، ص259، 257
- 12-أنظر عادل مصطفى: مدخل الى الهرمينوطيقا ، دار النهضة العربية ،، بيروت ، ط1، 2003، ص، ص31، 32

- 13- أنظر ارسطو: كتاب فن الشعر، ترجمة إبراهيم حمادة ، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة ، ص 183
- 14-André Lalande :vocabulaire technique et critique de la philosophie ,Quadrige,PUF ,Paris,3éd,2010,p317
- 15-Ibid,37
- 16-Julia Didier : dictionnaire de la philosophie, Larousse,Paris,1998,p213
- 17-René Alleau :la science des symboles, Payot,Paris,1976,p119
- 18- أنظر عبد الغني بارة : الهرمينوطيقا والفلسفة، نحو مشروع عقلي تأويلي، منشورات الاختلاف ، الجزائر. 2008 ، ص 163
- 19- أنظر إبراهيم محمد التركي : مدخل الى الفلسفة المسيحية في اوربا إبان العصر الوسيط ، دار الكتب القانونية ، مصر ، 2010 ، ص.ص 136.169
- 20-Christian Nadeau :le vocabulaire de saint Augustain, Ellipses, éd Marketing, France 2001, p, p27, 28
- 21-أوغسطينوس : اعترافات القديس أوغسطينوس، ترجمة الخوري يوحنا الحلو ، دار الشروق ، بيروت ، ط 5 ، 1996 ، ص 200
- 22-عادل مصطفى : مدخل الى الهرمينوطيقا، ص 46
- 23-ديفيد كوزنزهوي : الحلقة النقدية ، ترجمة خالدة حامد ، منشورات الجمل ، بغداد ، ط 1 ، 2007 ، ص 10
- 24- عادل مصطفى : مدخل الى الهرمينوطيقا، ص 18
- 25-Jean Dubois et autres : Dictionnaire de linguistique, Librairie Larousse, 1éd, 1973, p427
- 26- جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، ج 2، ص 170
- 27-إيان ماكلين : التأويل والقراءة، مجلة الملتقى ، ع 5 و 6، 2000، ص 73
- 28- المرجع نفسه ، ص 77
- Gadamer : la philosophie herméneutique, PUF , Paris, 2éd, p4229
- 30- غادمير : الحقيقة والمنهج ، ترجمة حسن ناظم ، علي حاكم صالح ، دار أوبا للطباعة والنشر، بيروت ، ط 1 ، 2007 ، ص 418
- 31-غادمير : فلسفة التأويل ، ترجمة محمد شوقي الزين ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط 2 ، 2006 ، ص 130
- 32- ديفيد كوزنزهوي : الحلقة النقدية ، ص 81
- 33- غادمير : فلسفة التأويل ، ص ، ص 120.121
- 34-Richard Rorty :philosophy and the mirror of nature, Princeton, new Jersey, 1979, p357
- 35- غادمير : فلسفة التأويل ، ص 512

- 36-بول ريكور : نظرية التأويل ، ترجمة سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط1 ، 2003، ص118
- 37- في إطار انتقال التأويل الى رحابة القراءة واشتداد العلاقة بينهما في التقليد الهرمينوطيقي المعاصر ، مع ظهور نظريات في القراءة جاء في تعريف القراءة : " القراءة هي شرط مسبق ضروري لجميع عمليات التأويل ". أنظر: فولفغانغ آيزر: فعل القراءة، ص11
- 38- رشيد بن مالك : قاموس مصطلحات التحليل السيمبائي للنصوص ، دار الحكمة ، الجزائر ، 2000، ص235
- 39-بول ريكور: صراع التأويلات، ترجمة منذر عياشي ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، ط1 ، 2005 ص102
- 40--بول ريكور: من النص الى الفعل، ترجمة محمد برادة ، حسان بورقية ، عين للدراسات للبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ط1 ، 2001 ، ص129
- 41- بول ريكور: صراع التأويلات ، ، ص44
- 42-دايفيد جاسير: مقدمة في الهرمنوطيقا، ترجمة وجيه قانصو ، منشورات الاختلاف ، بيروت ، ط1 ، 2007 ، ص120

